التطور والطب

بقلم د. روبرت "تومى" ميتشل

22 نوفمبر 2005

فى مجال الطب يُنظر إلى مناصرى مذهب الخليقة على أنهم حالة متخلفة . ونسمع دائمًا نفس النغمة : "التطور هو حجر الزاوية لعلم الأحياء" . فى عدد الشهر الماضى للمجلة الالكترونية نيويورك تايمز نشرت هذه الجملة : "التطور هو أساس علم الأحياء وعلم الأحياء أساس الطب... أنت تستهتر بشىء غاية فى الأهمية عندما تستهتر بالتطور" . (اقرأ رؤية الخليقة والتطور فى الأخدود العظيم ، www.nytimes.com ، 6 أكتوبر 2005)

كان علىّ كطبيب أن أختبر صحة هذه المزاعم عن أهمية الفكر التطورى خلال تعاملاتى اليومية مع المرضى . وسعيت أيضًا لدراسة معلومات عدة زملاء لى عما إذا كانوا بحاجة لأى معلومات عن التطور ليخدموا المجتمع كأطباء . بغض النظر عن أى معتقدات دينية (أغلب زملائى إما ملحدين أو مؤمنين بالتطور ويسخرون من اعتقادى بمبدأ الخليقة وأرض حديثة العهد) لا توجد حالة واحدة تصلح كمثال يظهر الاحتياج للتطور (أو الإيمان بمبادئه) فى ممارسة الطب الحديث .

الطب ومناعة المضادات الحيوية

يسرع دائمًا علماء التطور فى استخدام حجج واهية للترويج لمبادئهم وأشهر مثال على ذلك هو مناعة أو مقاومة المضادات الحيوية . فهم يجادلون (بضراوة فى أحيان كثيرة) بأن ينبغى على المرء أن يفهم بأن البكتريا ستتطور لحالة من المناعة ضد مضاد حيوى معين إذا استخدم هذا المضاد الحيوى بكثرة . ويتجاهلون الآليات المتعددة لمقاومة المضاد حيوى ولا يتطلب أى منها أو يشمل على التغيرات المتطورة المزعومة التى قد تزيد معلومات جديدة للجينوم .

فمثلاً هناك أمثلة عديدة عن مناعة المضادات الحيوية نجدها فى البكتريا المأخوذة من الجثث المجمدة لناس ماتوا قبل استعمال المضادات الحيوية . مناعة بعض المضادات الحيوية تنتج من الانتقاء الطبيعى من مجموع البكتريا المقاومة بالفعل . المضادات الحيوية تقتل الكائنات

الضعيفة والكائنات المقاومة تبقى حية .

هناك آلية أخرى للمناعة تحدث عندما يقع تغير مفاجىء أو تحور قد يسبب عيبًا فى قدرة البكتريا على نقل المضاد الحيوى داخل الخلية ، وبذلك يجعل البكتريا تقاوم هذا المضاد الحيوى بالذات . قد يتسبب تحور آخر فى تغيير موقع اعتاد على استخدامه مضاد حيوى داخل الخلية وبذلك يجعله عاجزًا عن قتل الخلية . ما لا يثيره أحد أبدًا هو إن أى تحور سوف يتسبب فى فقدان معلومة نظرًا لتغير المادة الجينية . حتى فى الحالات الغير مألوفة لما يُسمى تحور "نافع" هناك فقدان للمعلومة الجينية المتاحة للأجيال المتعاقبة .

أثيرت مؤخرًا حجج مشابهة لتفسير المناعة فى بعض سلالات فيروس الانفلونزا وفشلت هذه الحجج لنفس السبب . فقدان المعلومة لا يتوافق مع أى نموذج بيولوجى يفسر كيف تصبح الكائنات الحية أكثر تعقيدًا بمرور الزمن . فقدان المعلومة هو النقيض لنظرية تطور الجزيئات إلى إنسان ويتوافق جدًا مع النموذج الذى يعطيه مناصرو مذهب الخليقة لعلم الأحياء . وهكذا مقاومة المضادات الحيوية لا تصلح مبررًا للتطور الذى نادى به "داروين" .

الطب والأعضاء المندثرة

أثار مناصرو نظرية التطور ـ عبر السنين ـ موضوع الأعضاء التى يُطلقون عليها "الأعضاء المندثرة" فى الجسم البشرى . فقد زعموا أن هذه الأعضاء العديدة من بقايا ملايين السنين لعمليات تطور قدامية وصعودية ولم يعد لها أى وظيفة . من الممكن الاعتراض على هذا الرأى ونقول أنه يمنع تقدم الطب إذ يقبل الكثير مفهوم الأعضاء المندثرة ولا يحاول بذل أى مجهود فى البحث عن وظائف ممكنة لهذه الأعضاء .

فمثلاً اعتبرت الغدة الزعترية thymus gland لعدة سنوات غدة لا فائدة منها وكان يتم استئصالها بالاشعاع بدون داع من أطفال كثيرين لكننا الآن ندرك أهمية وظيفة الغدة الزعترية فى نمو أى جهاز مناعة طبيعى .

الزائدة الدودية والغدة الصنوبرية واللوز والعُصعص هى أمثلة لأعضاء شاع أنها من آثار التطور لكن من المعروف الآن أن لها وظائف حيوية فى نمو وعمل أجسامنا .

قد يبدو للمرة الثانية أن التطور عائق وليس معاوناً فى ممارسة الطب . فى الواقع هناك أعضاء مندثرة فى جسم الإنسان لكنها بقايا نمونا الأولى . وهذا ليس له علاقة بنظرية تطور الجزيئات إلى إنسان .

عند العينين

دار جدال آخر مؤخرًا حول ما يُطلق عليه "تصميم العين الردىء" . يدعى أصحاب نظرية التطور أن عين الإنسان مصممة تصميمًا رديئاً بسبب وقوع حواس الضوء خلف الألياف العصبية . عندما يفهم المرء كيف تتحول وحدات الضوء إلى طاقة كهربية فى شبكية العين يتضح له تصميم العين المذهل . فمثلاً تستجيب المتلقيات إلى وحدة ضوء واحدة ـ أصغر وحدة ضوء ! لا يوجد "تصميم ردىء" بل فقط سوء فهم (أو ربما سوء افتراض) من جانب أصحاب نظرية التطور . فالعين صُممت تصميمًا عجيبًا .

نظرية التطور ليس لديها فى واقع الأمر ما تقدمه فى مجال العلم التنفيذى فى الطب أو فى أى مجال آخر . بمعنى إن أى محاولة تتطلب تجربة علمية فى الحاضر من الممكن إجراؤها بصورة تفى الغرض بدون أى تدخل من نظرية تطور الجزيئات إلى إنسان ومبادئها .

فأين إذن الدليل على طبيعة التطور الأساسية بالنسبة للطب وممارسته ؟ من الممكن أن نستخلص أن أصحاب نظرية التطور بحاجة ليتعلقوا برأى يستبعد الله الخالق بالرغم من عدم وجود دليل قائم على التجربة ليدعم ذلك الرأى .

الأطباء وقضية الألم والموت

أوضحنا حتى الآن أن نظرية التطور ليست بذى فائدة بأى حال من الأحوال فى ممارسة مهنة الطب . لكن هناك قضية إضافية لابد أن نتناولها . ماذا عن أوجاع البشر ؟ ماذا عن الموت ؟ كيف يفسر عالم التطور هذه الأمور ؟ إذا كان التطور حقيقة (لمجرد الجدال ليس إلا) كيف يفسر الطبيب المرض ومآسى البشر؟

القاعدة الأساسية للتطور هو أن منذ ملايين لا تحصى من السنين بدأت الحياة فجأة من بركة بدائية دنسة . وعلى مدى الدهور المتتالية أصبحت الحياة أكثر فأكثر تعقيدًا وتقدمت من خلال مبدأ البقاء للأصلح . هذه العملية القاسية عديمة الرحمة والتى لا تتوقف أدت إلى قتل وافتراس مخلوقات لا تحصى من قبل المخلوقات الأخرى القادرة على التعايش . الضعفاء الذين لم يتمكنوا من التكيف مع البيئة أو إيجاد طعام أو المصابون أو الذين لم يكونوا جديرين بالبقاء بشكل أو بآخر فى نظر التطور سقطوا فى الطريق . كما قال "كارل ساجان" : "إن سر التطور هو الزمن والموت" .

من المفترض أن الجنس البشرى نتج من هذه العملية . ألا نرى أن عالم التطور متناقض مع نفسه عندما يصر على أن أفكاره التطورية تخدم الطب بصورة كبيرة ؟ هل سنجادل بأنه لا لزوم للأطباء ؟ إذا كان البقاء للأصلح هو تعويذة أصحاب نظرية التطور فأين الشعور بالشفقة ؟ لماذا يهتم الإنسان بأخيه الإنسان ؟ هل هذه التصرفات والمشاعر تناقض القوة الدافعة الجوهرية للتطور وهى البقاء للأصلح ؟

حتى "داروين" تناول هذه القضية :

"حتى الشعوب الهمجية يستبعدون الضعيف جسميًا وذهنيًا والذين لديهم قدرة على البقاء يتمتعون بصحة وافرة . أما نحن المتحضرون ، من الناحية الأخرى ، فإننا نبذل ما بوسعنا لإيقاف عملية الاستبعاد هذه ، فنبنى مصحات للأغبياء والمشوهين والمرضى ، ونضع قوانين ضعيفة ، والأطباء منا يبذلون أقصى ما عندهم لإنقاذ حياة كل شخص حتى آخر نسمة . هناك أسباب قوية تدعونا للاعتقاد بأن التلقيحات قد أنقذت حياة الآلاف ذوى البنية الضعيفة من الوقوع فريسة للجدرى . وهكذا فإن الأعضاء الضعيفة للمجتمع المتحضر تنجب نفس نوعها .

من اهتم بتناسل الحيوانات الأليفة لن يرى فى أن ذلك يشكل تهديدًا للجنس البشرى . من المدهش أن ترى أن الحاجة للرعاية والاهتمام أو رعاية موجهة توجيهًا خاطئاً تؤدى إلى فساد جنس ما ، إلا فى حالة الجنس البشرى نفسه ، لا يوجد أحد جاهلاً لدرجة أن يسمح لأسوأ حيوانات لديه بالتكاثر .

المساعدة التى نضطر لتقديمها للضعفاء ما هى إلا نتيجة عرضية لغريزة الشفقة التى اكتسبناها كجزء من الغرائز الاجتماعية لكنها قدمت بالطريقة المشار إليها . ولا نستطيع ضبط شعورنا بالشفقة حتى بدون الإضرار فى أكثر جزء نبلاً فى طبيعتنا ... لذا علينا تحمل الآثار السيئة لحياة الضعفاء وتكاثر نوعهم" . (تشارلز داروين ، انحدار الإنسان، الطبعة الثانية ، صفحة 133 - 134 ، 1887) .

من الجهة الأخرى ، أصحاب مبدأ الخليقة لديهم إجابات على هذه القضايا . إذا كان الله خلق فعلاً العالم فى ستة أيام حرفية وقال عن خليقته أنها "حسنة جدًا" فمن أين أتت الآلام والأوجاع ؟ الإجابة هى : "إنها غلطتنا"!

عندما تمرد آدم على الله فى جنة عدن كان كمن قال أنه يريد اتخاذ قراراته بنفسه والعيش مستقلاً بعيدًا عن سلطان الله ، من هنا نشأ الموت والألم . منذ السقوط "كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن" (رومية 8 : 22) . الموت والألم نتجا حتى هذا اليوم .

مفاهيم مساعدة الضعيف والألم جاءت من نظرة مسيحية لا تطورية . ليس لها أساس فى نظرية التطور ومبدأها القاسى البقاء للأصلح . الطبيب المتبنى لنظرة تطورية لايد أن يسأل نفسه عن دوافعه إذ يعمل جاهدًا ضد العمليات الطبيعية التى يدعى أنها أتت بالإنسان لحالته الراهنة .

البدء بمفاهيم خاطئة عن أصل الحياة سيكون له آثار مضرة بالطب والتكنولوجيا . لكن البدء بتاريخ صحيح للحياة وبإدراك أن الألم جاء نتيجة للخطية (كما ورد فى سفر التكوين) سيمكن المرء من أن يكون له نظرة ثابتة وصحيحة وسيتيح للطب (والمجالات الأخرى) مزيدًا من التقدم .

****

"روبرت تومى ميتشل" ، حاصل على الدكتوراة ، خريج كلية الطب جامعة "فاندربلت" ويعمل كطبيب باطنى فى "جالاتن" بـ"تنيسي" ، زميل لجمعية الأطباء الأمريكية ، ألقى محاضرات وكتب كثيرًا عن قضايا تتعلق بالخليقة والتطور .

فى عام 2005 طلب من د. "ميتشل" الانضمام إلى هيئة "أجوبة من التكوين" الأمريكية كمحاضر . للاستعلام عن دعوة هذا المتكلم النشط إلى بلدك قم بزيارة موقعنا .